في الخطاب السياسي

اللغة والسياسة

د. عبد السلام المسدّي

مفكر تونسي

اللغة والسياســة

د. عبد السلام المسدّي

مضى زمن كان وجيها فيه الجدل بين قائلين بأن اللغة إن هي إلا أداة للتفكير ثمّ أداة للتعبير وقائلين بأنها هي التفكير من حيث إنها العقل إذ يفكر. مضى ذلك الزمن لأن نظرة ولو عجلى في مسيرة الفكر الإنساني منذ تجددت فلسفاته الحديثة ومنذ تعاقبت الرؤى التفسيرية أو التأويلية لعلاقة الإنسان بالكون الخارجي تُطلعنا على سلك خفيّ لاحم مداره التسليم بأنه لا شيء يُدرك إلا باللغة. ولا شيء يدرك إلا من خلال اللغة، إذن : لا شيء يدرك خارج سلطة اللغة. ولكن الجديد الأجدّ هو أن تصريف المسألة بهذا الصوغ لم يعد أحد يحمله على أنه من فقاقيع نرجسيّة العلم اللغوي، ونكاد نجزم –بعد طول استبصار وامتداد الأناة– أن السبب الذي من أجله وبفضله زالت عن العلم اللغوي تهمة التسلط وجريرة الاستحواذ هو ازدهار علم تفكيك الخطاب ولا سيما الخطاب السياسي وهو ما أفضى إلى الاعتراف بسلطان الآلة اللغوية. ولكن العقل العاقل لا يمكنه أن يقرّ لموضوع العلم بالسلطة ثمّ ينكر على علم الموضوع سلطته. فالجميع على يقينٍ اليوم بقوة سلاح اللغة، بل بجبروت توظيف الإنسان لها، وعلى يقين بتحكمها المطلق في التواصل والمعرفة، وليس بوسع الجميع إلا التسليم – ولو على وجه المصادرة – بسلطة العلم اللغوي لأن موضوعه اللغة.

إن البلاغة الجديدة تعلن لك عن نفسها في اللحظة التي تعلن فيها أنت عن التسليم بانحسار سلطة المصرح به مقابل تضخم سلطة المسكوت عنه. وإن أبواب الإدراك الجديد لآليات السياسة الجديدة تنفتح لك واسعة فسيحة حتى تتقن مهارة القراءة الجديدة فتعرف كيف يتم تسريب القناعات، وحقن الولاءات، وتهيئة النفوس باختراق أسوارها شيئا فشيئا. إن اللغة بصورها الشعرية الفاتنة لهي أَلين المطايا لإنجاز الامتلاء في غياهب اللاشعور، وهذا هو فاتحة الوعي الجديد بدلالة عديد العبارات التي يحملها الناس محمل الكلام الإيديولوجي الخاوي من المقاصد المتعينة بينما تقوم في حقيقتها مقام المصطلحات المدققة المضبوطة : التوجيه النفسي، والتحكم الإدراكي، والغزو الذهني. إنها حقائق وليست من الأوهام في شيء. ذاك شيء نزير من ملحمة فائضة، هو قطرة تُبللنا عند الوعي بها والحال أن أنهارا منها تغمرنا صباحَ مساء فلا نشعر بابتلال لأننا غافلون عنها.

كيف يتم إنتاج الخطاب السياسي وكيف يتمّ استقباله ؟ هو سؤال يرتدّ إلى مسألة المدارك الذهنية واختلاف مستويات التعامل معها. إن الظاهرة الإدراكية ملازمة للكلام التداولي في كثير من لحظات استعمال الإنسان للغة، وهي ملازمة أكثر للكلام الأدبي لأنه خصيصة من خصائص شعرية اللغة. لكن الذي بدا لنا ثمّ ارتسخ حتى غدا قناعة حميمة على طول التردد واطراد الحيرة هو أن خير ما يجسم هذا البعد الإدراكي بين أبعاد الظاهرة اللغوية – أيا كان نمط اللسان الذي تتشخص به – إنما هو القول السياسي. ففي الأغلبية الغالبة من الأحيان عندما نكون حيال القول السياسي ولا سيما في لحظة مباشرته الأولى أو في لحظة إنشائه والإصداح به نبحث عن المعنى فنكتشف أنه لا يوجد في البناء النحوي للكلام، ولا في دلالة الألفاظ المعجمية، ولا يوجد في السياق التركيبي بين الجمل السابقة والجمل اللاحقة، ولا هو موجود في المقام التداولي باعتبار الروابط العالقة بين المتكلم والسامعين، ولكنه يوجد خارج الحدث اللغوي التواصلي تماما. وسنقول – بشكل مبدئي وعام – إنه يوجد مبثوثا بين شاشة الأحداث الجارية وخزانة الوقائع الماضية، فهو مزروع على أرض الذاكرة السياسية المتحركة، إنه يثوي بين حقيقة

تاريخية مضت وحقيقة تاريخية تريد أن تنشأ.

السياسة واللغة قرينان متلازمان، حيثما رأيت الواحد بدا لك الآخر، فإن لم يتكشف لك بوجهه فاعلم أنه ثاوٍ وراء قرينه، وليس من قول في السياسة إلا خلفه فعل سياسي لأن القائمين على أمور العباد لا يُنشدون أشعارا وهم يسوسون، ولا يطمحون إلى صنع الجمال وهم يحكمون، وما من فعل سياسي إلا وهو يُنتج بالضرورة خطابا، فإما هو خطاب الحاكم فهو ساعتئذ امتداح وزهو وتبرير، وإما هو خطاب المحكوم فهو تظلم وارتياد إلى الأفضل. كان الفعل في السياسة هو الذي يجر اللغة إليه جرّا، فهي أبد الدهر محكومة به، ولكن الوضع قد تغير، وتوشك الأدوار أن تنقلب فيه أحيانا، والسبب أن سياسة أمور الناس داخل الأوطان قد كانت هي الأصلَ وهي المبتدأ، وتأتي بعدها سياسة الروابط بين الوطن وسائر الأوطان في الأرض المعمورة، ثم حصل الانقلاب على مدار العقود فأصبحت سياسة الوطن محكومة بشبكة العلاقات المعقدة القائمة بينه وبين سائر الأوطان.

إن الوقوف على الجسر الواصل بين الفعل السياسي والقول اللغوي الذي انبثق منه قد يمثل لحظة ممتعة لكل من يستهويهم سرد الأخبار أو يغريهم إنعاش ذاكرة الأحداث، ولكنه سيمثل لحظة غنية لمن يستدرجهم كشف الأسباب التي تقبع خلف الوقائع التاريخية، ولمن يسعدهم إماطة اللثام عما سكتت عنه وكالات الأنباء أو غيّبته نشرات الأخبار أو خاتلته افتتاحيات الصّحف. تفكيك الخطاب عدسة مجهرية عالية الجودة تحضنا أن نستطلع كيف تجري مسلسلات السياسة، وكيف يحيك أهل الشأن والقرار نسيج الأحداث. قد نكون ممن يحملون هموم السياسة، ويعشقون استكشاف الباطن من خلال الظاهر، ويسلّمون بأن المصرّح به في عالم السياسة شيء نزير إذا ما قيس بالمخفيّ منها سواء ما انحجب بنفسه أو ما غيّبه الحاجبون، وقد نكون من الذين أرّقهم إلقاء السؤال حتى تملكهم الهوس فأصبحوا مولعين بإسقاط الأقنعة التي يصطنعها الإعلام في عصر الخطاب الكوني الموغل في المكر والمباهي بالدهاء، أو ربما نكون شغوفين بفك الشفرة التي بها يلعب صناع القرار الدولي بعقول الأفراد والجماعات : في كل تلك الاحتمالات سيكون ملاذنا الوحيد هو اللجوء إلى علم تفكيك الخطاب، فهو الكاشف لما توارى من أسرار.

بعد لحظة الوعي الأولى بسلطة اللغة في مجال السياسة يكفينا أن نقف عند الكلام السياسي على أنه نصّ يحكي صدى عالم كامل من المعاني، ويكفينا أن نستلّ من السياق كل عبارة صنعت دهشتنا في برهة ثم غمرها سيل الأخبار وغطاها تعاقب الأحداث. سنرى بأنفسنا عجبا وسنعيد اكتشاف التوالج المذهل بين كل الدوائر المرسومة أمامنا كالأطياف المتموّجة.

اللّغة سلطة في ذاتها والسياسة هي السلطة بذاتها ولذاتها. فأما اللّغة فالإنسان يفعل بها الفعل على الناس وكثيرا ما لا يكون واعيا بسلطتها ولا بخطرها وأما السياسة فأصحابها لا يتصورون أنفسهم إلا وهم يفعلون الأفعال بالناس على الناس، وبعضهم يمارس اللّغة وهو واع بقوتها إذ تشد أزر سلطته، وبعضهم لا يعي أن وزن سلطانه بوزن سلطة لغته. وفي مسافة ما بين هؤلاء وأولئك تزدهر الحياة أو يخبو وهجها.

السياسة هي السلطة الحاضرة واللغة هي السلطة الغائبة والذين يصوغون الأحلام الإنسانية يرون أن العالم كان يكون أسعد لو أن السياسة قلصت من حضورها في وعي أصحابها واللغة قلصت من غيابها عن جمهور الناس المحكومين بالسياسة.

منذ صباح التاريخ يوم بدأ الإنسان يدوّن لمن بعده مآثره كانت اللّغة أداة أساسية من أدوات السياسة، لم تكن أهميتها تقلّ عن أهمية المال وأهمية الاحتماء بالعصبية، غير أن وزن اللغة في استواء أمر السياسة قد تطور بتطور آليات الإنسان في تواصله مع الإنسان، ثمّ تضخم عندما أصبحت المعلومة ملكا مشاعا بين الحكام والمحكومين.

إن لحظة الصدق اللغوي إما أن تكون في وئام كامل مع مقاصد السياسة وإما أن تكون على طلاق بائن مع

الفرائض كما سنتها الأعراف. فالأهم – في الأغلب من الأحوال – ليس أن تقول أو لا تقول وإنما هو كيف تقول ما تقول. وإذا ما كان الإخلال بما تواضع عليه الناس يقف عند إفقاد اللغة بريقها دون أن يمتص نسغها في عملية الدلالة فإن الإخلال بما تواضعت عليه السياسة يصيب العصب الحي من شرايين المعنى بالكلية ثم ينسف سعي المتكلم إلى تحقيق مقاصده من الكلام.

السياسة لغة واللغة سياسة لأن اللفظ عند استخدامك إياه فيها يتحول من مجرد دال يحيل على مدلول إلى موقف ومن ورائه اختيار كامل مرتسم على شاشة الأحداث، وقد يكون في استعمال الكلمة أو العبارة ما يتجاوز حدود الواقعة التي تروم الإفصاح عنها ويصبح حاملا لأعباء التاريخ مختزلا صراعاته الطويلة في اختيار كلمة واحدة من بين كلمات عديدة أخرى كان يمكن أن تأتي بدلها. فجل ما بين اللغة والسياسة إيحاء وتلميح، وكم من مفردة خرجت من قاموس اللغة ودخلت قاموس السياسة فتبدلت ملامحها وغنمت من طاقات الدلالة وزنا لم يكن لها من قبل.

إذا غضب الإنسان فغضبه حالة، وإذا قال إنه غضبان فقوله إخبار عن السلوك، هو في الأولى قد تلبّس به المزاج وفي الثانية يتحدث عن نفسه وهو ماسك أمرها. فالغضب في ذاته انفعال ولكن تسمية الغضب غضبا شيء يقع خارج دائرة الانفعال، لأن استعمال اللفظ الدال على الحالة المزاجية دليل على أن الإنسان ما زال يسيطر على انقباض النفس وانبساطها. وهكذا ينكشف أن اللغة حين تتجلى تقيم حاجزا بين الآدمي وحالته الغضبية والسياسي المحترف لا يغضب، فإن غضب فمظنون فيه أنه يتماسك فيكتم الغيظ ويُظهر للناس غير ما تكتم عليه، وذاك أيضا شأن المقامات العليا بين خاصة الناس، والسياسي قد يخبر أنه غضبان فيكون إخباره قرينة على أنه متمالك ويكون استعماله للفظ الدال على الغضب دليل قوة لا قرينة انخذال. أما منتهى المفارقات فيتمثل في الخطاب السياسي المحبوك حين يتوسل بلغة الغضب فيكون في أعلى درجات السيطرة على الأحداث من خلال استخدامه للغة، وإذا بالمشهد على غاية من الشدّ : لفظ الغضب دليل على سكون المزاج وعلى هدوء الأعصاب يتوسل به الخطاب السياسي مكرا ودهاء ليصنع لحظة من الغضب يَغرق الخصمُ في انفعالها.

ربما كان لفظ الغضب يمور على خطوط التصاقب بين الوعي واللاوعي في ثقافة السياسة العربية وفجأة برز على السطح في محفل ناريّ وقاد : ففي (١٢ – ٤ – ١٩٩٦) شنت عساكر الجيش الإسرائيلي هجمة على جنوب لبنان متعللة بمطاردة جنود المقاومة وأطلقت على عمليتها اسما خاصا وظبته مطابخ ورشات الخطاب هو (عناقيد الغضب) وكان لفظ الغضب قد اقترن – على مسافة عقد ونصف قبل ذلك التاريخ – بعبارة (خريف الغضب) التي شاعت في ثقافة السياسة العربية كما سنراه. جاءت (عناقيد الغضب) عملية إسرائيلية بتسمية إسرائيلية، فقد كانت إسرائيل تريد الانسحاب من جنوب لبنان بعد أن توقدت نيران المقاومة عليها ولم تفلح في تثبيت جيش عميل لها، وعمت عمليات المقاومة القدس وتل أفيف (٤ – ٣ – ١٩٩٦) فتأجل الانسحاب وأقدمت إسرائيل على حملتها التي بلغت ذورتها في (١٤ – ٤ – ١٩٩٦) ثمّ عمدت إلى قصف قانا في أبشع الجرائم (١٩ – ٤ – ١٩٩٦) وفي الذاكرة أن مجلس الأمن – تحت إصرار أمينه العام بطرس بطرس غالي – قد شق عصا الطاعة أمام الولايات المتحدة في موضوع قانا، وذاك هو الذي أسرّته في نفسها واختزنت حفيظتها حتى دالَ الزمن فلم ترحم الأمين العام العربي وحرمته فرصة التجديد والاستمرار.

(عناقيد الغضب) صورة لاندلاع الاسم كانفجار المسمى، وللتسمية إيقاع ذو رهبة لأنه يحدث أزيزا في الذهن كأنه دويّ على غشاء الطبلة في الآذان، ومن الصدف أن يلتقي الصدى بين إيقاعات الاسم وهو يتجوّل من لغة إلى أخرى :

The grapes of Wrath.
Les Raisins de la Colère.
عناقيد الغضب.

ولكن شيئا آخر يثوي خلف الإيقاع المعلن، يغفل عنه بعض الناس ويفطن به بعضهم الباقي، فالتسمية ليست من ابتكار المخططين العسكريين الذين وظبوا العملية وإنما استخرجها بعض الدهاة من حراس الأرشيف هؤلاء الذين يديرون دواليب ورشة الخطاب ويتقنون بمهارة فائقة وصفة الأطباق في مطابخها. فالعبارة بنصها الحرفي عنوان قصة كتبها الروائي الأمريكي ذو الأصول البولونية جون شتاينبك John Steinbeck (١٩٠٢ – ١٩٦٨) كتبها عام ١٩٣٩ فساهمت في إحرازه على جائزة نوبل (١٩٦٢) ومن أوضح القرائن على أن السياسة تستخدم اللغة من حيث هي أداء لفظي لا غير فتعزله عن سياقه التداولي ثم تفصل بينه وبين دلالاته أن مضمون الرواية لا علاقة له بما أراده العسكر الإسرائيلي في جنوب لبنان، فالروائي شتاينبك كان يَصدر عن إيمان عميق بالفرد الآدمي وكان ينحو منحى المذاهب الإنسانية ذات المنزع المثالي، وفي روايته تلك يدين الصبغة غير الإنسانية التي آل إليها التطور الاقتصادي يومئذ بعد أن عم تصنيع الفلاحة وانجلت عواقب الرأسمالية المستبدة. فلا شيء يسيغ إذن استدعاء عنوان الرواية لإطلاقه على العملية العسكرية بكل فظاعتها الانتقامية إلا ذاك الإيقاع الصوتي محفوفا بلفظ الغضب.

من هذه اللقطة اللغوية سنمسك بسلك على طرفه عدسة كاشفة فنتجوّل به عبر أنفاق السياسة في رحلة إن لم نستطرفها فلا أقل لنا من أن نحوّلها إلى تسآل متجدد. فالغضب كلمة تحتل موقع النواة من جهاز ذهنيّ كامل، وعلينا أن نتعقب منعرجات تناسله. لن يكون بأيدينا دفتر الحالة المدنية لتثبيت ساعة الميلاد في كل جنين لغوي جديد، ولكننا سنصطنع العلائق كما لو أنه استقراء يومئ إلى استنباط افتراضيّ. فلئن لم يحصل بأيدينا في خاتمة المطاف إلا حصاد يسير فسيكفينا زرع الوعي بالمساحة الفاصلة بين بديهيات نحن واعون بها وبديهيات لا نتبصّرها إلا بعد أن ينبهونا إليها، وعندئذ يغمرنا السؤال الحائر : كيف لم ننتبه من قبل ؟ وقد تكون نشوة الانكشاف بدأت حين وصلْنا رواية (عناقيد الغضب) بعملية (عناقيد الغضب). ليس غريبا أن تقفز إلى الذاكرة العربية – بفضل هذا الاستنفار الذهني – لقطة إبداعية صيغت على مناويل الشعر ولم تنسجها ألياف الرواية. منذ زمن كان للشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي موعد مع الصورة الموحية، ففي الستينيّات وضع ديوانا أسماه (النار والكلمات) واستهله بقصيدة عنوانها (اعتذار عن خطبة قصيرة) أرّخها في (٨ – ٦- ١٩٦٠) وجاء فيها :

سيّداتي سادتي
خطبتي كانت قصيرة
فأنا أكره أن يستغرق اللفظ زماني
ولساني
ليس سيفا من خشبْ
كلماتي – سيداتي – من ذهبْ
كلماتي – سادتي – كانت عناقيد غضبْ

وليس لنا من خيار أمام الصورة الشعرية إلا الاتجاه صوب التفكيك الدلالي المترع تكنية ومجازا : تركيبة العنقود لوحة مجسمة للارتصاف الكثيف، ولكنه – على غير صورة حبات الرمان – عار مكشوف لم تغلفه الطبيعة بجدار عازل ولا بغشاء ساتر، وأما الأبلغ فهو بنيته التي على شكلٍ مخروطي يبدأ حبّة ثمّ يتصاعد حبّات حبّات، فإذا جمعت العنقود على صنوه تكاثر فغدا عناقيد وتضاعف الناتج بلا حد. وهل أوفى من تلك الصورة تدليلا على تكاثر اللفظ باللفظ والغضب بالغضب : كلماتي سادتي كانت عناقيد غضبْ. بين الشعر والرواية وأرض المعركة تنتصب التماثيل لتقول لنا : عليكم بثقافة الغضب حيث الرمز الموّار. فمن لنا بمنجد يسعفنا في التقريب بين الغضب الروائي والغضب الشعري وذاك الغضب الذي هو إعلاء لصوت الباطل كي يغمر بقايا الصدى من أصوات الحق ؟ ثم على من

كان البياتي يعلن غضبه في ذاك الزمن زمن "النار والكلمات" يا ترى؟

صعبٌ على المتابع للأحداث أن يفهم سر تواتر لفظ الغضب إن لم يكن قد جمع بين القرائن على مدى السنوات، فهذه الكلمة أصبحت من الحضور في الأسامي بحيث غدت رسالة مشفرة على صعيد الإعلام، وليس يتسنى فك شفرتها إلا بعدسة كاشفة للولائج المتوارية بين سلطة اللغة وسلطة السياسة. منذ عناقيد الغضب الإسرائيلية كف "الغضب" عن كونه لفظا من قاموس النفس في وصف مزاجها وتصوير تقلباتها وأضحى مفردة عسكرية كاملة الأوصاف، ثم على التدريج أمسى حاملا لخطاب رمزي يكاد أن يكون عاري الطلاء مكشوف المساحيق.

في سياق المناخ النضالي الذي هيأ الانتفاضة الفلسطينية الثانية ثمّ تابعها بعد أن رافقها انطلقت التسمية مخصصة الثانية كي تميزها من الأولى فقيل عنها هي انتفاضة الأقصى لأن شارون قد داس بقدميه تراب الحرم المقدس، يومئذ أعلنت المقاومة أن يوم الجمعة الموافق (٦ – ٩ – ٢٠٠٠) هو (يوم الغضب) فكانت الأذن العربية على موعد مع إيقاع ثقافة جديدة، وربما تكون الآذان لاهية، وربما تكون صاغية، ولكن تواتر الصدى سيغتصب من الأذهان خمولها ليضعها على جمار الوعي المتلظي. بعد زمن – هو بقياس التاريخ هنيهة ولكن بقياس ضحايا القنص الإسرائيلي أزل جحيمي – عادت المقاومة الفلسطينية لتعلن أن يوم (٨ – ١٠ – ٢٠٠٤) هو (يوم غضب) تشهيرا بفظاعة القمع الإسرائيلي في قطاع غزة، وكان ذاك اليوم هو الآخر يومَ جمعة، فتكاثف الرمز على الرمز، وبدا واضحا أن الرسائل المشفرة تصل إلى أصحابها بصفاء الخمسة على الخمسة. ويكفي المتثبت أن يلاحظ كيف بدأت العبارة في الاستعمال الأوّل باستعمال الغضب معرّفا بالألف واللام ثمّ نزعتهما عنه في المرة الثانية وجاءت به على النكرة : ذاك معناه أنه لم يعد يوما واحدا وإنما هو سيتعدد ويتكاثر.

ولم يمض شهران حتى تجدد الموعد وكان حارا حميما: صقور فتح – الجناح العسكري لمنظمة فتح – تنجز عملية نضالية وتتبناها، كانت غاية في الدقة والإعجاز، وكانت أنموذجا في تطابق الأسماء على مسمياتها. في (١٢ – ١٢ – ٢٠٠٤) تمّ تفجير مجمّع معماري هائل في تلك العملية التي اختير لها اسم (براكين الغضب) وليس الاسم تخييلا شعريا ولا هو مجرّد صورة فنية، إنه وصف يحاذي الحقيقة الفيزيائية، فالعملية تمثلت في حفر نفق أرضيّ يصل منتهاه إلى قواعد المجمّع المعماري، ودام الحفر أربعة أشهر حسب توصيف صقور فتح أنفسهم، ثمّ زرعت الألغام فانفجر المعمار من قواعده في باطن الأرض، وهل هناك ما يحاكي معنى "البركان" بأفضل من ذاك الصنيع ! وبين الدلالة العسكرية والدلالة الجيولوجية يستوي خطاب المقاومة متألقا ببهاء التسمية.

لكأنما غدا الغضب المفردة العسكرية الأدلّ، ولكأنه الأحق بالتجلي حيثما كانت مقاومة تتصدى لاغتصاب الحق، على زمن واحد كان للتحالف الإسرائيلي الأمريكي صورة مضادة يعليها تحالف الهوية على أرض فلسطين وعلى أرض العراق. وأقبلت اللغة بأسمائها تحتفي بهذا القران. فعندما قالت المقاومة الفلسطينية إنها أنجزت (براكين الغضب) لم يكن من إسرائيلي قياديّ إلا وهو يتجرّع مرارة الاسم الذي اختارته عساكره عام ١٩٩٦ جنوب لبنان. أما في الساحة الأخرى – حيث التوأم في الهوية والتاريخ – فكان الموعد موعدين : في (٢٥ – ٨ – ٢٠٠٠) والنجف محاصر، ومرقد الإمام عليّ مطوّق، اندفعت المقاومة العراقية في عملية قنص استثنائي فاحتجزت "شخصيات" عراقية يتعاونون مع الغزاة المحتلين، وأعلنت أن للذين أنجزوها اسما، وأن اسمهم (كتائب الغضب الإلاهي) وبعد أربعة أشهر ونيّف في (٤ – ١ – ٢٠٠٥) ومعركة ليّ الذراع في ما أعلن أنه الانتخابات المؤسسة للديموقراطية على أشدها عمّت بغداد عمليات للمقاومة قال عنها منفذوها إنهم (كتائب الغضب الإسلامي).

أفلا يرى الرائي إلى سحرية المشهد وألوان لوحته تتداخل فيها ريشة السياسة وأقلام اللغة، إنها شبكة من الرسائل المكشوفة ولكن الإعلام العربي – في معظم أحواله – كان يتلهى فقلما كان فيه رجل رشيد يميط اللثام عن لعبة "التغبية" التي تَحيكها الأصوات الرسمية. في النجف كان الاسم (الغضب الإلاهي) وفي بغداد (الغضب الإسلامي) أما الذي هو مقصود بالرسالة فالقائمون على تدبير الانتخابات والماسكون بأزرهم واللذين يصرون على إجرائها في موعدها (٣٠ – ١ – ٢٠٠٥) مهما تكن أحوال السياق، ولكن فحوى الرسالة أن أهل السنة ليسوا أقل كفاءة في صياغة مفردات الغضب وهم – بسبب ذلك ومن أجله – ليسوا أقل قدرة على الإمساك بناصية الأحداث. الغضب الإلاهي والغضب الإسلامي قرينان على ساحة واحدة يحتفلان بمراسم التضحية والفداء : هذا باسم الجماعة وذاك باسم الشرف الخالد.

كان الركب اللغوي متخلفا مع جيش الاحتلال، ولم يكن يسيرا عليه أن يلعب بمفردته على منصة اللغة. ففي يوم من الأيام لذ له أن يداعب أهواء التسمية فأطلق يوم (٩ – ١٠ – ٢٠٠٤) على عملية اقتحام الفلوجة اسما كانت له على ألسنتهم قصة تغري وتلهي، قالوا هي (عملية الفجر) فهل كانوا يمرّرون مدية التاريخ على جراح الذاكرة بساعة الفجر من يوم السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ للهجرة ؟ ربما، ولكن لا أحد يجزم، أما المقطوع به يقينا فهو العزف على أوتار التسمية بالإلهاء السخي : في (١٤ – ١٠ – ٢٠٠٣) قبض الأمريكان على صدام حسين وسموا تلك العملية (الفجر الأحمر) أفلا ترى أنهم يربطون بين الفلوجة معقل المقاومة السنية والرئيس العراقي المخلوع ذي الانتماء السني، فأي إغاظة هذه ؟ ومن للإعلام العربي بواخز يوقظه ؟ ولكن الأدق والأدعى للتمحيص هو أنهم بعد أيام من انطلاق (عملية الفجر) في اقتحام الفلوجة تبينوا أن الأمر أصعب بكثير مما تصوّروا وخططوا، وكان ذلك دأبَهم في كل مراحل مشروعهم الغازي، فأعلنوا اسما جديدا للعملية، سموها (عملية الشبح الغاضب) فعادوا إلى التوسل بهذه المفردة "السحرية" مفردة الغضب بوصفها عتادا ضمن منظومة الأسلحة في الميدان العسكري، أما الأشباح فمن لوازم الليل والفجر إن أردت، وهي من توابع سلاح الجو حيث تطير الطائرات محجوبة عن عدسات الرادار إن ابتغيت، ففي كل الأسامي نوافذ للتأويل وأخرى للتأويل المضاد.

ها نحن بحضرة الغضب وقد ترسخ مفردة عسكرية على أرض المعارك ولكنه اتقد لهيبا على حلبة التراشق اللغوي : كل معسكر يقذف برسائله المشفرة نحو المعسكر الآخر وجمهور الناس صم أو بكم في محفل الزفاف، ولكن الغضب لم يـألُ جهدا في الانصياع إلى قيود السياق، يتلبس بلبوس الشرط الحاضر فتغلب عليه سمة الوصف والتدوين ثم يستوي مفردة سياسية خالصة، هكذا وظفه محمّد حسنين هيكل عندما وضع مصنفه الخطير (خريف الغضب) حيث روى قصته مع محمّد أنور السادات في كتابة سردية هي أعلق بكتابة السيرة الذاتية. ما يعنينا تخصيصا هو الكثافة العالية التي كان لفظ الغضب بجل مشتقاته يتواتر في سرد الخطاب، أما المضمون فمداره إخراج عملية اغتيال الرئيس المصري في ثوب النتيجة الحتمية لحيثيات صنعها السادات بنفسه كان آخرُ مشاهدها حملة الاعتقالات الواسعة التي شملت المؤلف نفسه. جاء الكتاب في ستة أقسام، بدأ الحديث في آخر القسم الخامس عن (الغضب في كلّ مكان) وانتهى بالقول (كانت موجات الغضب تعلو حتى تكاد تغطي كل نواحي الحياة في مصر : الشارع غاضب... المسجد غاضب... وفوق ذلك كان الجالس على العرش البابوي غاضبا) ثمّ يأتي القسم السادس تحت عنوان (الصواعق) مفصلا المشهد الأخير من حياة السادات ومتخذا من لفظ (الغضب) طاقة تصريحية تتوالد وتتناسل حتى تحمل القارئ حملا على تعجل النهاية بأكثر مما تعجلت به عجلة الزمن. وبدأ الفصل الأوّل من القسم السادس بعنوان (٣ سبتمبر ١٩٨١) فساغ لمن يصر على تفسير المفردات أن يقتنع

بعنوان الكتاب (خريف الغضب) فشهر سبتمبر هو أول أشهر فصل الخريف في سماء الطبيعة.

من ذاكرة الزمن يعود الغضب على ركح مفردات السياسة، وحين يصدر اللفظ عن الجهات التي عرفت باتزان الخطاب وأناة التدبير وجميل الصبر يكون له أفق رمزي كثيف: في مطلع سبتمبر ٢٠٠١ كانت الأمم المتحدة تستعد لدورتها العادية وكان الرئيس الفلسطيني يتأهب لحضور جلساتها وإذا بالبيت الأبيض يعلن أن جورج بوش غير مستعد للاجتماع بياسر عرفات فلم يكن من الأمير سعود الفيصل – وهو في واشنطن يتجه نحو نيويورك – إلا أن صرح قائلا (إن المملكة السعودية تشعر بالإحباط والغضب) وأردف (إن فشل الرئيس بوش في التوصل إلى تسوية سلمية يجعل العاقل يفقد صوابه) والذي يمُد أفق التحليل في وشائج اللغة والسياسة هو هذه المصاقبة بين اللفظ ورديفه: فالغضب توترٌ وهو من القواميس الطارئة على العرف الدبلوماسي ولكن فقدان الصواب يسوّغه، فسبب السبب هو السبب: فشل بوش في أداء وظيفته (وسيطا أمينا) على حد عبارة سعود الفيصل فيما أفاض فيه بعدئذ (الشرق الأوسط: ١٠ – ١١ – ٢٠٠١).

إن الغضب كلما اقترن بالخريف كانت الدلالة في الطبيعة من تحصيل الحاصل، ولذلك تشيع في أدبيات التعليم وفي لغته الإنشائية عبارة غضب الطبيعة في فصل الخريف، ولئن كانت العبارة ذاتها مما قد أثث معجم الرومنسيّين الألمان والفرنسيين ثمّ الأدباء العرب المهاجرين وغير المهاجرين فإن الصورة المناظرة لها قد كانت دوما هي ابتهاج الطبيعة وزهوها في فصل الربيع، وتحوّلت مفردات الطبيعة إلى حقل السياسة، وكان الموكب اللغوي بهيجا حين تألقت عبارة (ربيع براغ) يوم انتفض الشعب التشيكوسلوفاكي في (١٥ – ٤ – ١٩٦٨) رافضا القهر الشيوعي المنتصب منذ ١٩٤٨ ومناديا بإرساء الديمقراطية، وقد تزعم رئيسه ألكسندر دوبشاك هذه الانطلاقة التي قمعت بدخول عساكر حلف فرسوفيا في (٢٠ – ٨ – ١٩٦٨) وفي الأثناء كانت اللغة تَجدف في إعياء شاحب على مجاديف اليأس حين اجتمع سبعون من العلماء والمثقفين والفنانين فحرروا بيانا مؤلفا من ألفي كلمة سموه (مانيفاست الألفي كلمة) وانتصروا فيه لرياح الحرية، ولكن ستار الأمل أسدل على المشهد التراجيدي يوم أقدم الطالب جون بالاش (١٦ – ١ – ١٩٦٩) على إضرام النار في جسده وسط جماهير براغ في أعظم ساحاتها وأشهرها: ساحة فانشاسلاس.

فإذا أسلمنا خواطرنا للتداعيات مذعنين إلى إيحاءات اللغة حين يكون اللفظ كالزائر المتجوّل بين السياقات تذكرنا ربيعا آخر وضع بصمته على جدران السياسة وترك مآثره في سجل الكفاح الديمقراطي. كان على رأس الحزب الشيوعي الصيني رجل اسمه هُو ياوبنغ، حاول فتح النوافذ فأزيح (١٩٨٧) ومات بعد عامين. ويوم جنازته (٢٢ – ٤ – ١٩٨٩) عمت بيكين مظاهرات طالبية للبكاء عليه وإعلان الغضب على النظام القهري وتحولت ساحة تيانامان فضاء فسيحا للاحتجاج ولإقامة مَعلم للحرية صُنع من مادة البولستيران، وإذا برئيس الحزب يومئذ زهاو زيانغ يجنح للمهادنة ويسعى إلى المحاورة في ما سمي عندئذ (ربيع بيكين) لأن الشهر كان الثاني من فصل الربيع. ويوم (٢٥ – ٥ –١٩٨٩) أزيح الرجل وأودِع الإقامة الجبرية لتنطلق عملية القمع الفظيع (٤ – ٦ – ١٩٨٩) حتى إذا مات زيانغ بعد خمسة عشر عاما (١٦ – ١ – ٢٠٠٥) وشطرنج العالم قد تبدل لم يلق مماته ولو بقية باقية من أصداء النفس الثوري.

قصة (ربيع براغ) و(ربيع بيكين) جزء من تواشج سلطة اللغة وفعل السياسة ولكنها لم تكن لتسوغ في سياقنا هذا لولا ومضة لغوية جاءت بها الأحداث فاستحقت النصاب الذي نحن فيه. فعلى مسافة متراوحة من التاريخ ومسافة صغرى من الجغرافيا كانت المنظومة اليوغوسلافية قد ارتطمت على جدران الزمن الجديد فتطايرت شظاياها وفي (٥ – ١٠ – ٢٠٠٠) تجدد الموعد مع تسمية الأحداث باسم فصل

من فصول الطبيعة الأربعة هو فصل الخريف ذاك الذي رأيناه قرينا وفيا للغضب، يومها انتصر فوسيسلاف كوستونيكا في الانتخابات الرئاسية اليوغوسلافية على الرئيس القائم سلوبودان ميلوزوفيتش، ولكن الرئيس المهزوم قرر إلغاء الانتخابات فتهاطلت جموع الناس كأمواج بشرية لتحاصر مقر البرلمان في مد غاضب سموه (خريف بلغراد) وكان الزمن في أواسط فصل الخريف فعلا فتعانق فعل اللغة وفعل السياسة على منبر الطبيعة ولم يبق لميلوزوفيتش إلا أن أسلم أمره بعد يومين للغضب الشعبي الذي دلت عليه كلمة الخريف.

وتدفع الأحداث بمفردات اللّغة أن تتصاهر على تباين مواردها، وأن يجتمع فيها الضد إلى ضده، ففي إحدى لحظات التوتر التاريخي الشديد بلغت الانتفاضة الفلسطينيّة سنما من أسنام انفجاراتها، وكان العزم حديدا بين صناع التاريخ، فأصدرت مجلة سطور (ع ٦٦ –ماي ٢٠٠٢) ملفا انتقت له من العناوين ما يتراكب فيه الموردان فسمّته (ربيع الغضب) وكتب رئيس تحريرها الناقد محمّد عناني قائلا : "إن ربيع الغضب... هو ربيع الإرادة والفعل".

وفي سياق السياسة العربية ترى الثقافة نفسها ملزمة بالحذر الدائم، فالممثل الموهوب أحمد زكي كان قد اشترك مع ميرفت أمين في بطولة الفيلم (زوجة رجل مهمّ) وهو من الأفلام الملتزمة، أدى فيه البطل دور رجل من رجال المخابرات، وفي إحدى المنعرجات السردية أظهر المخرج على الشاشة عبارة كثيفة الدلالة نصها (ربيع ١٩٧٧) ووراءها جموع غفيرة من المتظاهرين. كان المشهد عالقا بالأحداث التي عمّت مدينة القاهرة فأعلن حظر التجوّل يوم (١٩ – ١ – ١٩٧٧) ولم يكن الفصل ربيعا، وإنما هو الشتاء في أوجه، ولكن العبارة تداري الكياسة، فالمخرج قد تحاشى الأداء المكشوف فلم يقل (ربيع القاهرة) لا سيما وأنه عمد إلى تغطية أخرى عندما بادر بعرض المشاهد الخاصّة بجنازة عبد الحليم حافظ مقحما ذلك في الحبكة السرديّة.

بين قاموس الحرب ومعجم السياسة يتجوّل لفظ الغضب في رحلة خفية لا يتعقبها إلا من أمسك بالفوانيس ونزل أدغال السياسة لا تثني عزمه متاهات اللغة ولا حبائل الدلالة، فها هو الغضب يكف عن سِمته القدحية فينزع عنه السياق غبار الأتربة ووعثاء الرعونة، لم يعد مَثلبة يتوارى بها العاقل كلما أفقده الانفعال صوابَه، إنه مطلب من مطالب النضال، بل هو الكائن الهَلامي تتعدد مَلامسه بتعدد مقتضيات الخطاب : إثر مأساة ١٩٦٧ – وقد تلطف الحس العربي مستجيبا لنداءِ أولي الأمر في تسميتها نكسة والتخلّي عن تسميتها نكبة – هزجت فيروز بالشعر المغنى لزهرة المدائن فكانت مفردة الغضب هي القادحَ لأنوار الأمل (الغضب الساطع آت، بجياد الرهبة آت، وسيهزم وجه القوة، ويعيد بهاء القدسِ...) وتجدد موعد العرب، كل العرب بإذاعاتهم وفضائياتهم، مع صوت فيروز وهي ترتل على الآذان وأمام العيون أهازيج زهرة المدائن حيث امتزجت في بهاء متعالٍ إلهامات عاصي الرحباني وأوتار الأخوين، كان ذلك يوم داست الأقدام المدنسة أتربة القدس الطاهرة في ما سمّي بعدئذ بالانتفاضة الثانية (٢٨ – ٩ – ٢٠٠٠).

مفردة الغضب – كما ترى – مسدس في ميدان المعركة، وهي شعار على منبر السياسة، ثمّ هي نشيد في مصداح الحماسة، ولكنها أيضا راية يرفعها الشاعر ليعلي بها صوت الهوية والانتماء، ويوما كان الشاعر العراقي عبد الرزاق عبد الواحد خائفا على العروبة يرتجف خوفا من ضياعها فصاح صيحته ملتحما بالقضية فلم يجد خيرا من تلك المفردة فنادى (لبيك أيها الغضب) ويوما آخر كان المثقف العربي يجهد نفسه ليلتقط بين سجوف الظلام حبة من النور ثائرا على سخرية المواعيد : بعد نضال دام سبعة أعوام قفل رياض الريس مجلة الناقد (جوان ١٩٩٥) فجمع مقالاته فيها ونشرها في كتاب وضع له من العناوين أدلها وأعلقها بما نحن فيه، هو (أكتب إليكم بغضب) ثمّ أضاف (كيف تقول لا في عصر نعم) وضع المؤلف لكتابه مدخلا اقتبس عنوانه من عبارة قالها الروائي الألباني إسماعيل قدري

(الحياة في زمن التفاهة) إلى أن يأتي الفصل الذي عنوانه (حرب الحرية) وإذا به أقسام ستة يستهلها الكاتب بالجملة نفسها (أكتب إليكم بغضب) كرجعة شعرية أو كمحاسبة موسيقية تراوح بين الأداء والعزف:

(أكتب إليكم بغضب : غضب من يخشى لعنة التاريخ التي لا ينجو منها من يحاول التصدي لها بالزلفى أو المراوغة والتجاهل (...)

أكتب إليكم بغضب : غضب المتسائل عن يأس الإنسان العربي من الحرية قبل أن يصل إلى مشارفها ويأسه من الديموقراطية قبل أن يدرك مفاهيمها (...)

أكتب إليكم بغضب : غضب من فقد القدرة على الإحساس بزلزال الناس العاديين (...)

أكتب إليكم بغضب : غضب على كل أوثان العقائد السائدة التي يطوح بها الإيمان الجديد بالحريات (...)

أكتب إليكم بغضب : غضب المؤمن بأن خلاص أمته الحقيقي لن يأتي إلا عن طريق أبنائها (...) يا لغضب التاريخ).

وترتدّ القيم على أعقابها فإذا بالغضب - وهو الانفعال الشائن المقيت الذي طالما حذرتنا منه وصايا الأنبياء ووصايا الحكماء ونبهنا إلى مخاطره علماء النفس وأطباء الشرايين – قد استوى قيمة في ذاته، بل إنه الفضيلة الغائبة التي لا مطلب على لسان المثقف الملتزم إلا بإقامتها وإعلاء شأنها، من أجل ذلك بدا لأسامة أنور عكاشة – ذاك المثقف المصري الذي اختص بكتابة النص الدرامي وأصبح فيه مرجعا – أن يوقع هو الآخر على ميثاق الغضب في حميّة عربية كلها جرأة على النفس وعلى الواقع العربي مستهلا بالقول (غضب لا يأتي) وواصلا (هُنا على أنفسنا فهُنا على الجميع، ومن يَهُن يسهل الهوان عليه، ما لجرح بميت إيلام، وهُنا لأننا نسينا أن الغضب الحقيقي هو التغيير وهو هجر الاستكانة والضعف، هو تحطيم الحلقة الجهنمية للديكتاتورية والاستبداد وتكميم الأفواه وكسر الأقلام وفرض الوصاية الغاشمة على الفكر والإبداع، أخرست ألسنتنا وعُقمت أفكارنا فأصابنا الهوان ولن ينقذنا إلا الغضب الحقيقي نصنعه ولا ننتظره) كما جاء في أوراق مسافر (الاتحاد، الإمارات، ٩ – ١٢ – ٢٠٠٠) لكأن الغضب هو الميثاق الثوري في زمن التفاهة.

غير أن للغضب صورة أخرى في سجل الذاكرة العربية، هي صورة الفاجعة، وفجيعتها كانت تتنامى بقدر ما كان مشهدها ملفوفا بأقماط المسكوت عنه، والحديث عنها بعد أوانها هو فاجعة أخرى إذ غير مستبعد أن يُحمل القول على حديث الشماتة أو حديث الذي يمشي على الأشلاء، ولكن البحث في اللغة يتأبى على التواطؤ مع السياسة مهما تكن تبعات الكشف، فذلك عقدُ شرف ومستملَياته بند من بنود أمانة التاريخ، وإماطة الأقنعة عنه جزء من استحقاقات الفرد العربي على أمناء الحرف والكلمة.

(ساعة الغضب) مدية تفتح واحدا من تلك الجراح التي إذا راجعتها وغمرك الإحساس بالانتماء أخذك الصداع ولم تعرف إن كنت تبكي لها أو كنت تتأسى على زمنها. ساعة الغضب ذكرى أليمة، وأحداثها لم تدونها الأقلام ولا سجلتها الأشرطة، وإنما روتها الشفاه وتواتر ذكرها وسردها حتى غدت يقينا يتجدد فترة بعد أخرى. كان صدام حسين يغضب فيأمر بما يليق بمنزلة غضبه، وبعد الغضب وما استوجبه الغضب يستيقظ أو يتبدّى أنه استيقظ ثمّ يأمر بالكفالة التامة : مرتب شهري قار مدى الحياة، وسيارة لائقة بالمقام، يوهب كل ذلك إلى أسرة المغضوب عليه. وسَرَت بين الدوائر عبارة الرعب التي أطلقها لسان الغاضب نفسه (شهداء ساعة الغضب) وكانت بداية الفاجعة يوم جاء حافظ الأسد إلى بغداد (١٦ – ٦ – ١٩٧٩) للتوقيع على الميثاق الوحودي، وكان الترتيب أن يتولى أحمد حسن البكر منصب الرئيس وحافظ الأسد منصب نائب الرئيس، فغضب صدام حسين الذي كان نائبا للرئيس البكر وغاب عن مراسم استقبال الرئيس السوري في المطار، ولم يمض شهر حتى خلع الرئيسَ العراقي (١٧ – ٧ – ١٩٧٩) وبعد أيام معدودات حلت ساعة الغضب وتم تدشين مأساة لم

تتوقف فصولها : شهداء ساعة الغضب. ومن سخرية التاريخ أن تكون لمن احترف غضبات الظلم والجور لحظة يطلع فيها على عيون العالم من خلال الشاشات الناقلة وهو في سياج القبضة الكاسرة فيغضب غضبته الأخيرة وتكون غضبة حق لا غضبة ظلم. في (١٦ – ٣ – ٢٠٠٦) جالت إحدى حلقات المسلسل السريالي في محاكمة صدام حسين الذي استرجع على لسان الإعلام العالمي لقبه القانوني (الرئيس السابق) وإذ كان رئيس المحكمة يستنطقه كان يلقي خطبته السياسية فاحتدّ وحنق ثم اغتاظ وزمجر (لولا الأمريكان لما كنت تستطيع أن تأتي بي هنا لا أنت ولا أبوك) ويفهم أبناء لغة الضاد في فصيحهم وغير فصيحهم أن إيقاع الكلام في خاتمته شتيمة خالصة هي في أعلى نبرات (الغضب).

مفردة الغضب بساعتها وبشهدائها هي التي فتحت فوهة النفق الذي سيقود إلى ظلام الجحيم العربي، وعلى أتونه ضاعت مجازات اللغة أمام حقائق السياسة.

فالرئيس الأمريكي جورج دابل يو بوش كان مواظبا على تلاواته كل صباح، وكان من بين ما يردد مقطعٌ من الرسالة المقدّسة بين يديه : "إنّه يغضب ويصلي من أجل إطاعة الـرّب". اللّغة تلبّي دعوى الزمن كلما اقترنت دلالة مفرداتها بدلالات الأحداث، ولم يكن خافيا على جماهير الناس الإخراج المسرحي الذي تورطت فيه هيئة الأمم المتحدة في قرارها الخاص بسوريا ولبنان، ولم يكن لأحد أن يؤمن بالغيرة الكبرى التي أبدتها الولايات المتحدة على الدولة اللبنانية، إنما الهدف المنشود هو استئصال جذور المقاومة ورميها في سلة الإرهاب. وكان أن خرجت مظاهرات في الشارع تحمل لافتات كتب عليها (لبنان... حرية الغضب) وازدانت بالمعاصب الحمراء على الجباه (الأهرام العربي : ع ٤١٦ – ١٢ مارس ٢٠٠٥).

وعندما انكشفت فضيحة تدنيس القرآن داخل معتقل غوانتانامو لم يفلح الرئيس جورج بوش في امتصاص الصدمة النفسية التي أصابت الضمير الإنساني بشكل مطلق، ويوم الجمعة (٢٧ – ٥ – ٢٠٠٥) خرجت في عواصم عربية وإسلامية جموع من المصلين يعبرون عن احتجاجهم فسميت يومئذ "مظاهرات الغضب" (الرياض : ٢٨ – ٥ – ٢٠٠٥).

وقد يلتئم القران بين اللّغة تتوسط المكان والزمان، ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر خطط الخديوي إسماعيل لتجديد مدينة القاهرة فبادر باستحداث منطقة على الطراز الأوربي سميت "الإسماعيلية" نسبة إليه، ثمّ أصبح المكان – بفضائه الدائري واتساع مساحاته – ميدانا تعبّر فيه الجماهير عن غضبها منادية بالعدل والحرية، فسمي منذئذ ميدان التحرير، وتولدت من تلك العبارة صيغ متعددة من أبرزها : ميدان الغضب. ونسي الناس تاريخ المكان وتاريخ أسماء المكان فجسر قصر النيل كان يسمى هو الآخر جسر الخديوي إسماعيل، لكن الاسم زال وبقي الجسر وبقيت على حافتيه الأسود الأربعة المنتصبة اثنين اثنين تلك التي أهداها النحات الفرنسي إلى الخديوي إسماعيل. ميدان الغضب هي التسمية الطارئة على ميدان التحرير تأتي على فصيح اللغة ولكن الثقافة الجماهيرية بما فيها الصحافة الشائعة تطلق على المكان عبارة أخرى هي "كعكة الغضب" كذا جرى الأمر في أحداث القاهرة عام ١٩٧٧.

إنّ اللغة في الوجود أداة مطلقة وهي في السياسة قيمة مقيدة ولكن لها في تدوين السياسة وظيفة متحكمة، وتجري العادة بأن الناس يهتمون بالوقائع السياسية دون أن ينتبهوا مليا للصياغة التي نحكي بها تفاصيل الأحداث ودون أن يقفوا بصبر وأناة على عتبات اللغة التي بها نسرد الأوصاف فنتخذ من المفردات مرايا لبعض ما في خواطرنا ولكثير مما في ضمائرنا المتوجعة. من أجل هذا ترى الناس يطابقون بين الحدث السياسي والإخبار عنه حتى لكأن رسالة الإبلاغ واحدة لا تصدر إلا عن أداء واحد، أو كأنما الخبر هو الخبر مهما تنوعت صيغه أو تلونت تجلياته، ومن وراء ذلك كأن الإخبار عن الحدث السياسي فعل في مطلق البراءة بحيث لا تنحشر

فيه مقاصد صانعه حين يصنعه. لذلك لم يكن مألوفا عندنا أن نبحث في الآليات المحركة للغة في مجال السياسة لأننا لم نتشبع بعد بنواميس استراتيجيات الخطاب عامة وبقوانين استراتيجيّات الخطاب السياسي تخصيصا. فقد يدفعنا الحدث السياسي إلى الوقوف برهة على اللغة، وقد نستشهد ونحن نبحث في اللغة بقولة جاءت على لسان أحد السياسيين، ولكننا لم نعهد اتخاذ التقاطع بين الظاهرتين مجالا للبحث والاستكشاف.

على شطرنج الأحداث تكتوي اللغة بنيران ويَسْلم من بعض الأذى من يأخذ الأشياء على عواهنها، ويلوذ بالسلامة من يقف عند الخبر الواحد ثمّ يتناساه قبل أن يطرق بابه الخبرُ الجديد. أما من كان من أقداره أن يتابع، وأن يرصد، وأن يجمع الأشتات، ويؤلف بين الهوامل، فأوجاعه باللغة أشد وأشقى.

في السياسة، وعلى حاشية قاموس لغتها ومعجم ألفاظها، قد يبلغ المجاز حدا لا تعرف إن كنت تدرجه ضمن البلاغة الاستعارية فتبحث له عن خانة في الكناية والتورية، أو كنت تسلم تحت التداول المتواتر بأنه حقيقة لغوية جديدة. ويزداد ذهنك تشردا إذ تكتشف أن الصورة البلاغية كأنما صيغت على مقاس محدد : في السياق الزمني أولا، وطبقا للمتحدث عنه ثانيا.

إنها رحلة ليست كسائر الرحلات، نركب فيها متن اللغة لنجوس بين منعطفات السياسة، وكم من لفظة أو عبارة أو اسم أو لقب اصطلاحي بوسعنا أن نتخذه مصباحا ننزل به إلى كهوف المقاصد السياسية فنميط اللثام عن أسرار هي كصناديق العجائب.